حول التجربة التاريخية لدكتاتورية البروليتاريا[1]

نسخها للإنترنت الصوت الشيوعي
https://sites.google.com/site/communistvoice
communistvoice@yahoo.com

جرد[2] المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي حصيلة التجارب الجديدة المكتسبة سواء أعلى صعيد العلاقات الدولية أم في البناء القومي . وقد اتخذت فيه سلسلة من قرارات بالغة الاهمية . وهذه القرارات تتعلق بالتطبيق الحازم لسياسة لينين حول امكانية تعايش سلمي بين البلدان ذات الانظمة الاجتماعية المتباينة ، وبتطوير النظام الديموقراطي السوفياتي ، وبوجوب التقيد بمبدأ القيادة الجماعية داخل الحزب ، وبنقد نواقص الحزب واقرار الخطة الخمسية السادسة لتطوير الاقتصاد الوطني .

ان مسألة النضال ضد عبادة الشخصية شغلت مكانا هاما اثناء ذلك المؤتمر . وقد فضح هذا الاخير بصرامة بالغة عبادة الشخصية التي انتشرت ابان فترة مديدة من الحياة السوفياتية وادت الى وقوع اخطاء عديدة في العمل ونجمت عنها نتائج مؤسفة. ان هذا النقد الذاتي الجريء الذي قام به الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي لأخطائه الماضية يدل على روح مبدئية سامية في حياة الحزب الداخلية وعلى الحيوية الكبيرة للماركسية – اللينينية .

اننا لا نعرف في التاريخ ولا في البلدان الرأسمالية المعاصرة أي حزب حاكم أو أي جماعة سياسية في خدمة الطبقات المستغلة يجرؤ على ان يعرض بنزاهة اخطاءه الفادحة امام اعضائه والجماهير الشعبية . والأمر بالعكس بالنسبة الى حزب الطبقة

العاملة. ان حزب الطبقة العاملة هو في خدمة الجماهير الشعبية الواسعة . والنقد الذاتي لا يفقد مثل هذا الحزب شيئا اللهم إلا اخطاءه الذاتية ويكسبه تأييد الجماهير الشعبية العريضة .

منذ شهر واكثر يثرثر رجعيو العالم اجمع ، وقلوبهم عامرة بالفرح ، حول النقد الذاتي الذي قام به الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي بصدد عبادة الشخصية . انهم يقولون : حسنا ! هو ذا الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، الذي كان اول من شاد نظاما اشتراكيا ، يقترف اخطاءا فادحة ، والادهى من ذلك ان ستالين ، القائد المشهور والماجد ، هو الذي اقترفها ! ان الرجعيين يعتقدون ان انهم يملكون هنا حجة تتيح لهم الاساءة الى سمعة الاحزاب الشيوعية في الاتحاد السوفياتي وغيره من البلدان .

فأي علم من أعلام الماركسية قد كتب قط اننا لن نقترف ابدا أخطاء أو انه من المستحيل مطلق الاستحالة ان يمكن لشيوعي اقتراف اخطاء ؟ أليس على وجه التحديد لأننا ، نحن الماركسيين – اللينينيين ، قد نفينا دوما امكانية وجود ((كائن خارق)) قادر على ألا يقترف ابدا خطيئة واحدة ، اكبيرة كانت أم صغيرة ، أليس لهذا السبب نمارس ، نحن الشيوعيين ، النقد والنقد الذاتي في حياة حزبنا الداخلية ؟ أمن الممكن ان نتصور مجرد تصور أن دولة اشتراكية ، أقامت لأول مرة في التاريخ دكتاتورية البروليتاريا ، لا تقترف اخطاء من أي نوع كانت ؟

قال لينين في تشرين الاول ١٩٢١ : ((ألا لتنهال علينا كلاب وخنازير البورجوازية المحتضرة والديمقراطية البورجوازية المحتضرة والديمقراطية البورجوازية الصغيرة المشدودة الى ركبها باللعنات والشتائم والسخرية للهفوات والاخطاء التي نرتكبها اثناء بنائنا نظامنا السوفياتي . اننا لا ننسى لحظة واحدة اننا ارتكبنا وما نزال نرتكب جملة من هفوات واخطاء . وهل هناك من وسيلة لعدم اقتراف اخطاء في عمل جديد بالنسبة إلى التاريخ كخلق نمط ما يزال مجهولا بعد من تنظيم الدولة ! اننا سنناضل دونما تأخير لتصحيح هفواتنا واخطائنا ، ولتحسين تطبيق المباديء السوفياتية في الحياة ، ذلك التطبيق الذي ما زال ناقصا جدا في نظرنا)) .

كما لا يمكن أن نتصور ان بعض الأخطاء المقترفة في المراحل الأولى تستبعد إلى الأبد كل امكانية لاقتراف اخطاء جديدة أو حتى لتجدد الأخطاء ذاتها بهذا القدر أو ذاك . فمنذ أن انقسم المجتمع البشري إلى طبقات ذات مصالح متعارضة ، مر بدكتاتورية سادة العبيد ، وبدكتاتورية الموالي الاقطاعيين ، وبدكتاتورية البورجوازية، تلك الدكتاتوريات التي دامت ألوف السنين . وانما منذ انتصار ثورة اوكتوبر عرفت الانسانية دكتاتورية البروليتاريا . ان الاشكال الثلاثة الأولى من الدكتاتورية هي دكتاتوريات الطبقات المستغلة (بكسر الغين – ملاحظة الصوت الشيوعي) ، رغم ان دكتاتورية الموالي الأقطاعيين أكثر تقدمية من دكتاتورية سادة العبيد ، ورغم أن دكتاتورية البورجوازية أكثر تقدمية من دكتاتورية الموالي الاقطاعيين . ان هذه الطبقات المستغلة التي لعبت دورا تقدميا معينا في تاريخ التطور الاجتماعي لم تستطع أن تجمع خبراتها في ممارسة السلطة إلا على حساب أخطاء لا تحصى وذات مدى تاريخي خلال مراحل طويلة وإلا بعد أن كررت مرارا وتكرارا نفس تلك الأخطاء . بيد انه كلما كان يتفاقم التناقض بين علاقات الانتاج التي تمثلها تلك الطبقات وبين قوى المجتمع المنتجة ، كان لا مناص من ان تقترف اخطاء اخرى، أكثر عددا واشد فداحة ، مسببة تمردات واسعة النطاق من قبل الطبقات المضطهدة وتفسخا في صفوفها بالذات ، الشيء الذي قد يؤدي في النهاية الى دمارها. أما دكتاتورية البروليتاريا فهي بطبيعتها مختلفة كل الاختلاف عن جميع اشكال الدكتاتوريات السابقة التي كانت دكتاتوريات طبقات مستغلة . انها الدكتاتورية التي تمارسها الطبقة المستغلة (بفتح الغين – ملاحظة الصوت الشيوعي) ، دكتاتورية الغالبية على الأقلية ، وهدفها إقامة مجتمع اشتراكي بلا استغلال ولا بؤس . انها أكثر الدكتاتوريات تقدمية وآخرها ايضا في تاريخ البشرية . لكن لما كان يقع على عاتق هذه الدكتاتورية إنجاز أجل المهام واصعبها وتحمل أعقد نضال في طريق التاريخ الاكثر التواء ، كان من المحتم ، كما قال لينين ، ان تقترف اخطاء عديدة .

إذا ما دلل بعض الشيوعيين على غطرسة وعجرفة ، وتركوا فكرهم يتحجر ، فإنهم قد يكررون اخطاءهم نفسها او اخطاء الغير . ان علينا ، نحن الشيوعيين ، ألا

يغيب نظرنا ابدا عن هذا . ان دكتاتورية البروليتاريا لا بد ان تملك سلطة شديدة المركزية حتى تقهر عدوا ذا بأس . وهذه السلطة يجب ان تتحد بدرجة عالية من الديمقراطية . فعندما يقع اشتطاط في المركزية ، تظهر بالضرورة اخطاء عديدة . وهذا شيء يسهل فهمه . لكن مهما تكن الاخطاء المقترفة فإن نظام دكتاتورية البروليتاريا سيكون دوما ، في نظر الجماهير الشعبية ، اعلى بما لا يقاس من كل الانظمة الدكتاتورية للطبقات المستغلة (بكسر الغين – ملاحظة الصوت الشيوعي) ، ومن دكتاتورية البرجوازية . لقد كان لينين على حق عندما قال : ((اذا ما هاجمنا خصومنا وأشاروا أن انظروا : هو ذا لينين بعينه يقر بأن البلاشفة ارتكبوا كمية ضخمة من الحماقات ، فإنني ارد على ذلك : أجل ، لكن حماقاتنا ، أتعرفون ، هي مع ذلك من غير نوع حماقاتكم كليا)) . فالطبقات المستغلة (بكسر الغين – ملاحظة الصوت الشيوعي) التي ليس لها من هدف غير النهب قد أملت دوما في تأبيد دكتاتوريتها من جيل الى آخر ، ولجأت بالتالي الى كل الوسائل الممكنة لسحق الشعب. ان اخطاءها لا يمكن التغلب عليها . لكن البروليتاريا التي تناضل من أجل تحرر الشعب على الصعيد المادي والايديولوجي تستخدم دكتاتوريتها لتحقيق الشيوعية ، وتوطيد الوئام بين البشر ، وللعمل على التلاشي التدريجي لدكتاتوريتها الخاصة . ولهذا تبذل قصارى جهدها لتوفر أكمل نمو لروح المبادهة ولنشاط الجماهير الشعبية . وان امكانية نمو غير محدود لروح المبادهة ونشاط الجماهير في ظل دكتاتورية البروليتاريا تنطوي ايضا على امكانية التغلب على جميع الاخطاء المقترفة في ظل هذا النظام .

على قادة الاحزاب الشيوعية والدول الاشتراكية تقع مسؤولية التقليل إلى أدنى حد من اخطائهم ، ومنع وقوع بعض الأخطاء الفادحة قدر الامكان ، والحرص على استخلاص الدروس من الاخطاء المنعزلة والجزئية والعابرة ، وبذل قصارى جهودهم حتى لا تنحط هذه الاخطاء إلى اخطاء ذات مدى قومي أو طويلة الأمد . ولهذا ينبغي على كل قائد أن يكون بالغ التواضع والحذر ، وعلى صلة وثيقة بالجماهير ، وان يأخذ مشورتها في كل المسائل ، وان يجري استقصاءات ودراسات

مكررة عن الموقف الواقعي ، وان يمارس باستمرار النقد والنقد الذاتي تبعا للظروف وبالقدر المناسب . وعلى وجه التحديد لأن ستالين لم يسلك هذا المسلك ، اقترف في المرحلة الاخيرة من حياته بعض اخطاء فادحة في عمله ، بوصفه قائدا رئيسيا للحزب والدولة . فقد اصبح مزهوا بنفسه ، وخانه التبصر ، وظهرت في فكره النزعة الذاتية والميل الى الاكتفاء بوجهات نظر جزئية . وقد اتخذ قرارات مغلوطة بصدد بعض المسائل الهامة ، الشيء الذي أدى الى نتائج مؤسفة للغاية .

أن انتصار ثورة اوكتوبر الكبرى أتاح للشعب وللحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي أن يقيم ، بقيادة لينين ، أول دولة اشتراكية في سدس الكرة الأرضية . وقد حقق الاتحاد السوفياتي بسرعة التصنيع الاشتراكي للبلاد وجماعية الزراعة ، وفتح الآفاق امام العلم والثقافة الاشتراكيين ، ووطد تحالفا راسخا بين قوميات عدة في شكل اتحاد سوفييتات . واصبحت القوميات المتأخرة في الاتحاد السوفياتي قوميات اشتراكية . وفي الحرب العالمية الثانية تجلى الاتحاد السوفياتي على انه القوة الرئيسية التي انتصرت على الفاشية وانقذت الحضارة الاوربية . وساعد ايضا شعوب الشرق على قهر العسكرية اليابانية . ان كل هذه النجاحات المجيدة اظهرت للانسانية المستقبل المشع للاشتراكية والشيوعية ، وزعزعت بقوة هيمنة الامبريالية ، وجعلت من الاتحاد السوفياتي السور الاول والامنع في النضال العالمي من أجل سلم دائم . وشجع الاتحاد السوفياتي ودعم سائر البلدان الاشتراكية في بنائها . وشجع في العالم قاطبة الحركة الاشتراكية والحركة المناهضة للاستعمار وغيرها من الحركات العاملة في سبيل تقدم البشرية . هذه هي المأثرة العظيمة التي حققها الشعب السوفياتي والحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي في تاريخ البشرية . والرجل الذي أرشد الشعب والحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي الى الطريق المفضية الى هذه النجاحات الكبيرة هو لينين . والاستحقاق في ذلك ينبغي ان يرجع الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي التي مارست قيادة حازمة في النضال من اجل تحقيق خط لينين السياسي ، وان جزءا لا يمكن محوه من هذه الاستحقاقات يعود الى ستالين.

بعد موت لينين طبق ستالين وطور، بوصفه المسؤول الرئيسي عن الحزب والدولة، الماركسية–اللينينية بصورة خلاقة . وفي النضال من أجل الدفاع عن ميراث اللينينية ضد اعدائها – التروتسكيين والزينوفييفيين وغيرهم من عملاء البرجوازية(!)[٣] – عبر ستالين عن ارادة الشعب وتكشف عن انه مناضل نابغة من مناضلي الماركسية – اللينينية . واذا كان ستالين قد كسب تأييد الشعب السوفياتي ولعب دورا تاريخيا هاما ، فهذا قبل كل شيء لأنه دافع ، مع سائر قادة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، عن خط لينين المتعلق بتصنيع بلاد السوفييت وجماعية الزراعة . ان الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، بوضعه هذا الخط موضع تنفيذ ، كفل الانتصار للاشتراكية في بلاده وخلق شروط انتصار الاتحاد السوفياتي في الحرب ضد هتلر. ان جميع هذه الانتصارات التي أحرزها الشعب السوفياتي تتفق ومصالح الطبقة العاملة في العالم قاطبة والانسانية التقدمية قاطبة ، ولهذا مجد ايضا اسم ستالين في العالم . بيد ان ستالين ، بعد ان حاز على حظوة كبيرة لدى الشعب ، سواء في داخل الاتحاد السوفياتي أم خارجه ، بتطبيقه الخط اللينيني تطبيقا صحيحا ، وقع في خطأ المبالغة في دوره الخاص وعارض القيادة الجماعية بسلطته الشخصية . ونجم عن ذلك ان بعض اعماله سارت في طريق مخالف لمباديء الماركسية – اللينينية الاساسية التي عمل هو نفسه على نشرها . فمن جهة ((كان ستالين يعترف بأن الجماهير الشعبية هي خالقة التاريخ ، وبأن على الحزب أن يبقى باستمرار على صلة وثيقة بالجماهير ، وان يطور الديمقراطية في داخله ، وكذلك النقد والنقد الذاتي ، والنقد الصادر من الاسفل الى الاعلى. لكنه ، من جهة ثانية ، كان يقبل بعبادة الشخصية ويشجعها ويتخذ قرارات شخصية تعسفية . وهكذا ظهر لدى ستالين ، في المرحلة الاخيرة من حياته ، تناقض بين النظرية والممارسة حول هذه المسألة)) .

ان الماركسية – اللينينية تقر بأن الشخصيات القيادية تلعب دورا كبيرا في التاريخ. والشعب والحزب بحاجة الى شخصيات طليعية قادرة على تمثيل مصالح الشعب وارادته ، وعلى الوقوف في الصف الاول من نضاله التاريخي ، وعلى إرشاده . ان

إنكار دور الفرد ، دور الرجال الطليعيين والمرشدين خطل كامل . لكن كل قائد من قادة الحزب او الدولة ، اذا ما وضع نفسه فوق الحزب والجماهير بدلا من ان يبقى وسطها ، واذا ما انفصل عن الجماهير ، كف عن أن تكون له رؤية كاملة ونفاذة لقضايا الدولة . وفي مثل هذه الشروط ينجرف حتما حتى الرجل النابغة من طراز ستالين الى اتخاذ قرارات مغلوطة وغير منسجمة مع الواقع بصدد المسائل الهامة . ان ستالين ، بإهماله استخلاص الدروس من الاخطاء المنعزلة ، الجزئية العابرة ، المتعلقة ببعض المشاكل ، لم يستطع ان يتجنب تحولها الى اخطاء فادحة تمس الأمة بأسرها ولمدى طويل . ولقد راح ستالين ، في الجزء الاخير من حياته ، يزدهي اكثر فأكثر بعبادة الشخصية تلك . فخرق نظام المركزية الديمقراطية في الحزب ونظام الجمع بين القيادة الجماعية والمسؤولية الفردية . وهذا قاده الى اقتراف بعض اخطاء فادحة ، منها انه اعطى اهمية اكبر مما ينبغي لمشكلة قمع مناهضي الثورة ، ولم يدلل على اليقظة الضرورية عشية الحرب المناهضة للفاشية ، ولم يول كل الانتباه المطلوب لمسألة تطوير اوسع للزراعة ورفاه الفلاحين المادي ، وقدم بعض النصائح المغلوطة بصدد الحركة الشيوعية الاممية ، واتخذ على وجه الخصوص قرارا مغلوطا في مسألة يوغسلافيا . فبصدد جميع هذه المسائل ، وقف ستالين موقفا ذاتيا ، وكانت له وجهات نظر جزئية ، وانفصل عن الواقع الموضوعي والجماهير .

ان عبادة الشخصية مظهر متخلف عفن من مخلفات غابر تاريخ الانسانية[٤] . ان عبادة الشخصية راسخة الجذور ، لا لدى الطبقات المستغلة (بكسر الغين – ملاحظة الصوت الشيوعي)، بل أيضا لدى المنتجين الصغار. ومعروف أن الأبوية قد ولدها اقتصاد المنتجين الصغار . وبعد اقامة دكتاتورية البروليتاريا ، وحتى بعد إقصاء الطبقات المستغلة (بكسر الغين – ملاحظة الصوت الشيوعي) واستبدال اقتصاد المنتجين الصغار باقتصاد جماعي وتوطد المجتمع الاشتراكي ، يمكن ان تبقى بعض المخلفات العفنة ، السامة ، من ايديولوجية المجتمع القديم ، في عقول البشر لحقبة طويلة جدا من الزمن : ((ان قوة العادة لدى الملايين وعشرات الملايين من البشر هي ارهب قوة)) (لينين) . وعبادة الشخصية هي بالضبط قوة عادة ملايين

وعشرات ملايين البشر . وطالما بقيت قوة العادة هذه في المجتمع ، امكنها ان تؤثر على العديد من موظفي الدولة ، ولم توفر حتى قائدا مثل ستالين . ان عبادة الشخصية هي انعكاس ظاهرة اجتماعية في اذهان البشر ، وعندما يقع قائد للحزب والدولة من طراز ستالين هو نفسه تحت تأثير هذه الايديولوجية المتأخرة ، ينعكس هذا التأثير بدوره على المجتمع ، ويلحق الأذى بقضيتنا ، ويعرقل مبادهة الجماهير الشعبية ونشاطها الخلاق .

ان تناقضات وصراعات متنامية تقوم بين القوى المنتجة ونظام الاشتراكية السياسي والاقتصادي وحياة الحزب كلما تطورت من جهة ، وبين تلك الحالة الفكرية من عبادة الشخصية من جهة ثانية . ان النضال ضد عبادة الشخصية الذي شن اثناء المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي نضال عظيم وشجاع يخوضه شيوعيو وشعب الاتحاد السوفياتي لإزالة العقبات الايديولوجية التي تعرقل مسيرتهم الى الامام .

ومن السذاجة الاعتقاد بأنه ما عاد ممكنا ان توجد تناقضات في مجتمع اشتراكي . ان انكار وجود هذه التناقضات يعني إنكار الديالكتيك . ان طبيعة التناقضات تختلف حسب اختلاف المجتمعات ، وتختلف كذلك وسائل حلها . لكن تطور هذه المجتمعات يستمر دوما وسط تناقضات متواصلة . والمجتمع الاشتراكي ايضا يتطور عبر التناقضات بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . ففي مجتمع اشتراكي او شيوعي ستطرأ باستمرار وبالضرورة تجديدات تكنيكية ، وتحولات في النظام الاجتماعي . ولو كانت الأمور لا تسير على هذا النحو لوصل تطور المجتمع الى النقطة الميتة ولما عاد في مقدور المجتمع التقدم . ان الانسانية ما تزال بعد في ريعانها. وما من أحد يستطيع ان يقول كم مرة يتجاوز الطريق الذي ما يزال عليها ان تقطعه الطريق الذي قطعته. وستظهر باستمرار ، وتبعا لمختلف الشروط وشتى الظروف ، تناقضات ، كالتناقضات بين الروح المجددة والروح المحافظة ، بين ما يسير الى الأمام وما هو مشدود الى الخلف ، بين ما هو ايجابي وما هو سلبي. وكل شيء سيتابع تطوره على هذا النحو : ابدا في ذهاب من تناقض الى تناقض . وعندما يتم

حل التناقضات القديمة فستظهر تناقضات جديدة . ان البعض يزعم ان التناقض بين المثالية والمادية يمكن اقصاؤه في مجتمع اشتراكي او شيوعي . وواضح ان وجهة النظر هذه غير صحيحة . فطالما وجدت تناقضات بين الذاتي والموضوعي ، بين ما يسير الى الامام وما يضل مشدودا الى الخلف ، بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج : فسيستمر التناقض بين المثالية والمادية في الوجود في مجتمع اشتراكي او شيوعي ، وسيتجلى تحت اشكال شتى .

ما دام البشر يعيشون في المجتمع ، فإنهم يعكسون في مواقف متباينة وعلى درجات متفاوتة التناقضات الموجودة في شكل مجتمعي . لكن حتى في المجتمع الشيوعي ، لن يكون كل انسان بالضرورة كاملا . فسيبقى الناس يحملون تناقضات في ذواتهم ، وسيظل هناك اناس اخيار واناس اشرار ، الناس فكرهم صحيح نسبيا ، وآخرون فكرهم مغلوط نسبيا . وستبقى هناك صراعات بين الناس ، لكن هذه الصراعات ستكون ذات طبيعة وشكل مختلفين عن طبيعة وشكل الصراعات التي تدور في المجتمعات الطبقية . واذا ما نظرنا من هذه الزاوية الى التناقضات بين الفردي والجماعي في مجتمع اشتراكي فلن يكون في وجودها ما يدعو الى الاستغراب . وكل قائد للحزب او الدولة سيسقط حتما في طريقة في التفكير متشنجة ، وبالتالي سيرتكب اخطاء فادحة اذا ما انفصل عن القيادة الجماعية والجماهير الشعبية وواقع الحياة . ان علينا ان نسهر على تجنب احتمال استفادة بعض الاشخاص من النجاحات العديدة التي يحققها الحزب والدولة ومن الثقة الكبيرة التي اكتسبوها لدى الجماهير حتى يسيئوا استعمال سلطتهم ويسقطوا بالتالي في الخطل .

ان الحزب الشيوعي الصيني يهنيء الحزب الشيوعي السوفياتي على النجاحات الهامة التي حققها في نضاله التاريخي ضد عبادة الشخصية . وان تجربة الثورة الصينية تحمل ، هي ايضا البرهان على أنه بالاعتماد فقط على حكمة الجماهير الشعبية ، وعلى المركزية الديمقراطية ، وعلى نظام الجمع بين القيادة الجماعية والمسؤولية الفردية يستطيع حزبنا ان يحقق انتصارات كبيرة وان يحقق على الوجه المطلوب الانجازات الكبيرة سواء أفي مرحلة الثورة ام في مرحلة البناء القومي . لقد

خاض الحزب الشيوعي الصيني نضالا متواصلا في صفوف الثورة ضد ابراز الفرد والبطولة الفردية اللذين يبتعدان عن الجماهير . ومن المؤكد ان مثل هذه الظاهرات ستستمر في الوجود لحقبة طويلة من الزمن . وحتى اذا ما امكن التغلب عليها ، فقد تعاود الظهور. فهي تتجلى لدى هذا البعض تارة ولدى ذاك طورا . وعندما يركز الاهتمام على دور الفرد ، يتجاهل في غالب الاحيان دور الجماهير والجماعة . ولهذا فإن من الناس من يستسلم بسهولة لغطرسة مجنونة أو لثقة خرافية بالذات بينما يتعبد آخرون عبادة عمياء للغير . اذن فعلينا ان نحرص على خوض نضال لا يني ولا يكل ضد ابراز الفرد والبطولة الفردية وضد عبادة الشخصية .

لقد اتخذت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني في حزيران ١٩٤٣ قرارا حول مناهج القيادة لمحاربة النزعة الذاتية في مناهج القيادة . واليوم ، وعندما يدور الكلام عن مسألة القيادة الجماعية في الحزب ، ما يزال يحسن بجميع اعضاء الحزب الشيوعي الصيني وبجميع قادته ان يرجعوا إلى ذلك القرار الذي جاء فيه : ((في كل ما يتعلق بالعمل العملي لحزبنا ، لا يمكن أن توجد قيادة سليمة إلا بالاعتماد على مبدأ الانطلاق من الجماهير للعودة إلى الجماهير . وهذا يعني تعميم (تنسيق وتنهيج بعد دراسة معمقة) افكار الجماهير (التي هي وجهات نظر مشتتة وغير منهجية) ، واعادة هذه الافكار المطورة إلى الجماهير ، مع تفسيرها وتشعيبها حتى تجعل منها الجماهير افكارها ، وتدعمها وتترجمها عملا ، والتحقق في عمل الجماهير بالذات من صحة تلك الأفكار . ومن المناسب بعد ذلك تعميم افكار الجماهير مرة اخرى ، ومرة اخرى اعادة هذه الافكار إلى الجماهير لكسب دعمها الحازم . . . وينبغي تكرار العملية نفسها دوما ودوما . بهذه الصورة ، وعند كل مواجهة جديدة مع الجماهير ، تصبح هذه الافكار أكثر صحة وأكثر حيوية وأكثر غنى باستمرار . هذا ما تعلمنا اياه النظرية الماركسية عن المعرفة . ولطالما أشير في حزبنا الى هذا المنهج في القيادة بتسمية شعبية هي ((خط الجماهير)) . ان كل تاريخ عملنا يعلمنا انه في كل مرة يتم فيها اتباع خط الجماهير هذا ، يكون العمل جيدا ، أو جيدا نسبيا ، وانه حتى اذا كان ينطوي على اخطاء فإن هذه الاخطاء يسهل تقويمها . لكن في كل مرة لا يتم فيها

اتباع هذا الخط ، يمنى عملنا بالفشل . ذلكم هو منهج القيادة الماركسي – اللينيني ، خط العمل الماركسي اللينيني . فبعد انتصار الثورة ، وعندما تصبح الطبقة العاملة والحزب الشيوعي الطبقة والحزب القائدين في الدولة ، يمكن للذين يقودون الحزب والدولة ، والذين قد يطوقون من أكثر من جانب بالنزعة البيروقراطية ، ان يجدوا انفسهم في الخطر الأكبر ، خطر استخدام جهاز الدولة لمباشرة اعمال تعسفية ، وللابتعاد عن الجماهير والقيادة الجماعية ، وللجوء إلى طرائق استبدادية فيها خرق لمباديء الحزب والدولة الديمقراطية . وعلينا بالتالي ، اذا كنا لا نريد أن نغوص في هذه الحمأة ، أن نولي المزيد من الانتباه ايضا لتطبيق خط الجماهير كمنهج قيادي ، وألا ندع انفسنا نغفل عنه، ولو في اضيق الحدود . علينا إذن ان نقيم نظاما محددا تمام التحديد يكون بمثابة ضمانة للتقيد الصارم بخط الجماهير والقيادة الجماعية ، بحيث يمكن تجنب إبراز الفرد والبطولة الفردية اللذين يبتعدان عن الجماهير وتجنب النزعة الذاتية والنظرات الجزئية في عملنا قدر الامكان ، تلك النزعة وتلك النظرات الجزئية في عملنا قدر الامكان ، تلك النزعة وتلك النظرات التي تنفصل عن الواقع الموضوعي .

وعلينا ايضا أن نستخلص الدروس من النضال الذي يخوضه الحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي ضد عبادة الشخصية وان نستمر في مكافحة الدوغمائية .

أن الطبقة العاملة وسائر فئات السكان المسترشدة بالماركسية – اللينينية قد انجزت الثورة بنجاح واستولت على سلطة الدولة . وقد فتح انتصار الثورة وتوطيد السلطة الثورية الذي تبعه بدورهما ، آفاقا غير محدودة لتطور الماركسية – اللينينية . بيد انه في الوقت الذي كان فيه الجميع يعترفون بالماركسية كأيديولوجية مرشدة للدولة بعد انتصار الثورة ، اعتمد عدد لا بأس به من دعاتنا على السلطة الادارية وعلى نفوذ الحزب في غالب الاحيان ليبثوا الماركسية – اللينينية في اذهان الجماهير في شكل عقيدة جامدة ، بدلا من أن يعملوا بدأب ، ويجمعوا عددا كبيرا من الوقائع ، ويمارسوا طرائق التحليل الماركسية – اللينينية ، ويستخدموا لغة الشعب ليفسروا بطريقة مقنعة وحدة الحقيقة الشمولية للماركسية – اللينينية والوضع العيني في الصين . لقد حققنا ،

مع مر السنين ، بعض التقدم في الابحاث المتعلقة بالفلسفة ، والاقتصاد ، والتاريخ ، ونقد الآداب والفنون ، ولكن ما تزال هناك على وجه الاجمال ظاهرات غير سوية كثيرة . ان الكثير من باحثينا ما يزالون معتادين على العمل بصورة دوغمائية ، وفكرهم يظل مقيدا بالغل نفسه . انهم يفتقرون الى القدرة على التفكير من تلقاء أنفسهم وإلى الروح الخلاقة ، وهم متأثرون من بعض وجهات النظر بعبادة شخصية ستالين. ومن المهم ان ننوه هنا بأن علينا ان نتابع دراسة مؤلفات ستالين بعناية كما فعلنا حتى الآن ، وأن نجني منها ، بوصفها إرثا تاريخيا هاما ، كل ما هو مفيد فيها ، ولاسيما المؤلفات العديدة التي يدافع فيها عن اللينينية ويجرد بصورة صحيحة حصيلة تجربة البناء في الاتحاد السوفياتي . ان تبني أي موقف آخر سيكون من قبيل الخطأ . ولكن هناك طريقتين في دراسة هذه المؤلفات : الطريقة الماركسية والطريقة الدوغمائية . ان البعض ينظر إلى آثار ستالين بصورة دوغمائية ، فينجم عن ذلك انه لا يستطيع تحليلها ورؤية ما فيها من صحيح وخاطيء ، وحتى ما هو صحيح فيها يجعلون منه حقيقة مطلقة ويطبقونه دونما تمييز . ان ستالين يقدم ، على سبيل المثال ، هذه الصيغة التي تقول أن الضربة الرئيسية ، في مختلف الحقبات الثورية ، يجب ان تسدد بصورة تؤدي إلى عزل قوى العصر السياسية والاجتماعية الوسطية . ان علينا ان نمحص صيغة ستالين هذه من وجهة نظر نقدية ، ماركسية ، آخذين الظروف بعين الاعتبار . ففي بعض الظروف ، قد يكون صحيحا عزل تلك القوى ، لكن ليس من الصحيح عزلها مهما تكن الظروف . أن تجربتنا تعلمنا ان الضربة الرئيسية في الثورة يجب ان تسدد إلى العدو الرئيسي بصورة تعزله. اما القوى الوسطية فعلينا ان ننتهج ازاءها سياسة الاتحاد معها وفي الوقت نفسه النضال ضدها ، بحيث نجعلها محايدة على الاقل ، وان نعمل ، اذا ما كانت الظروف مؤاتية ، على ان نجعلها تنتقل من موقف الحياد هذا إلى موقف التحالف معنا ، حتى يساهم ذلك في تطور الثورة . لكن في احدى الحقبات – حقبة السنوات العشر من الحرب الأهلية ، من ١٩٢٧ الى ١٩٣٦ – طبق بعض رفاقنا بصورة ميكانيكية صيغة ستالين تلك على الثورة الصينية، ووجهوا هجومهم الرئيسي ضد الطبقات الوسطية إذ نظروا إليها على انها

اخطر اعدائنا . وكانت عاقبة ذلك اننا عزلنا انفسنا بدلا من أن نعزل عدوا حقيقيا . وهكذا كبدنا انفسنا خسائر وحققنا هدف العدو الحقيقي . وانما بالإحالة إلى خطأ الدوغمائية هذا طرحت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني ؛ ابان الحرب ضد تاليابان ، ويهدف قهر المعتدين اليابانيين ، المبدأ الذي يوجب علينا ((تطوير القوى التقدمية والتحالف مع القوى الوسطية وعزل القوى المؤيدة لمتابعة الحرب ضد الشيوعيين إلى النهاية)) . وكانت القوى التقدمية المذكورة هي قوى العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين التي يقودها الحزب الشيوعي الصيني أو القابلة للتأثر به . وكانت القوى الوسطية البورجوازية الوطنية ومختلف الاحزاب والتجمعات الديمقراطية والديمقراطيين اللاحزبيين . وكانت القوى المناصرة لمتابعة الحرب الاهلية حتى النهاية تضم القوى الكومبرادور والاقطاعية ، وعلى رأسها تشان كاي شيك ، التي ما كانت تعارض اليابانيين إلا بمقاومة سلبية والتي كانت تخوض نضالا نشيطا ضد الشيوعيين . ان التجربة وليدة الممارسة قد اثبتت أن سياسة الحزب الشيوعي الصيني هذه تتجاوب مع الظروف التي كانت تجري فيها الثورة الصينية وانها كانت هي السديدة .

هكذا هي الحال دوما : ان الدوغمائية لا يتذوقها إلا من كان فكرهم كسولا . وعلاوة على انها عديمة النفع بالمرة ، تلحق اذى لا يمكن تقديره بالثورة ، وبالشعب وبالماركسية – اللينينية . وما يزال من المناسب اليوم ، لرفع وعي الجماهير الشعبية السياسي ولاستثارة ديناميكيتها الخلاقة ولتعجيل التطور السريع للعمل العملي والنظري ، تهديم كل احترام خرافي باطل للمعتقدات المتحجرة .

ان دكتاتورية البروليتاريا (التي هي في الصين دكتاتورية ديمقراطية شعبية بقيادة الطبقة العاملة) قد حققت انتصارات كبيرة في بلدان يقطنها تسعمئة مليون نسمة . وكل بلد من هذه البلدان ، سواء أكان الاتحاد السوفياتي ام الصين ام أي ديمقراطية شعبية اخرى ، له تجاربه الخاصة في النجاحات كما في الاخفاقات . وعلينا باستمرار ان نعمم مثل تلك التجارب . علينا ان نعرف ان احتمال اقتراف اخطاء في المستقبل يبقى قائما . والدرس الهام الذي يمكن استخلاصه هنا هو أن من واجب هيئات حزبنا

القيادية السهر على ان تبقى الاخطاء غلطات معزولة وجزئية وعارضة وألا تترك هذه الغلطات المعزولة والجزئية والوليدة تنتشر على نطاق قومي وتتوطد لحقبة طويلة من الزمن .

ان تاريخ الحزب الشيوعي الصيني يدل على ان بعض الاخطاء الفادحة قد ارتكبت في عدة مناسبات . وهكذا ظهر ، في فترة الثورة التي تمتد من ١٩٢٤ الى ١٩٢٧ ، الخط المغلوط للانتهازية اليمينية الممثلة بتشن تور سيو . وفي فترة الثورة التي تمتد ١٩٢٧ الى ١٩٣٦ ظهر كذلك الخط المغلوط للانتهازية ((اليسارية)) في ثلاث مناسبات في حزبنا . وافدح هذه الاخطاء كان الخط الذي اتبعه كل من لي لي – سان ووانغ مينغ في عام ١٩٣٠ ومن عام ١٩٣١ الى ١٩٣٤ على التوالي . وخط وانغ مينغ هو الذي انزل افدح الاضرار بالثورة . وفي العصر نفسه ظهر خط تشانغ كوو – تاو الانتهازي اليميني المضاد للحزب وملحقا في قاعدة ثورية هامة ، متحديا اللجنة المركزية للحزب ، افدح الأضرار بقسم هام من القوى الثورية . ان اخطاء تشانغ كوو – تاو انحصرت في قاعدة ثورية هامة ، بينما انتشرت جميع الاخطاء الاخرى المرتكبة في هاتين الحقبتين على المستوى القومي . وإبان الحرب ضد اليابان ، ظهر من جديد خط انتهازي يميني مغلوط يمثله هذه المرة ايضا الرفيق وانغ مينغ(٥) . لكن لما كان حزبنا قد استخلص الدروس مما حدث ابان الحقبتين السابقتين للثورة ، فإننا لم نفسح المجال امام هذا الخط المغلوط ليتطور . وقد قامت لجنة الحزب المركزية في وقت قصير نسبيا بالتقويم الضروري . وبعد تأسيس الجمهورية الشعبية في الصين ظهرت في حزبنا عام ١٩٥٣ كتلة كاو وجاو شورشي المناهضة للحزب . وكانت هذه الكتلة تمثل القوى الرجعية داخل البلاد وخارجها وكان هدفها تدمير عمل الثورة . ولو لم تفضحها اللجنة المركزية وتقض عليها في الوقت المناسب لكان ضرر بالغ لا يمكن تقديره قد ألحق بالحزب والثورة .

ان هذا كله يبين لنا ان تجربة حزبنا التاريخية تأتت له ايضا من تمرسه اثناء نضاله الخاص ضد مختلف الخطوط السياسية المغلوطة ، وبهذه الصورة امكنه ان يحقق انتصارات كبيرة في الثورة وفي بناء البلاد . ان اخطاء جزئية ومعزولة تطرأ

في احيان كثيرة على عملنا : وانما فقط بالاعتماد على حكومة الحزب الجماعية وعلى حكمة الجماهير الشعبية او بالتعجيل في فضح وتصحيح هذه الاخطاء ، امكننا ان نقتلها في المهد ، حائلين بينها وبين الامتداد الى كل البلاد وبين توطدها لمدة طويلة من الزمن وبين تحولها بالتالي الى اخطاء هامة تلحق الضرر بالشعب قاطبة .

ان على الشيوعيين ان يتبنوا منهجا تحليليا إزاء الاخطاء المقترفة في الحركة الشيوعية . إن من الناس ما يعتبر ان ستالين اخطأ في كل ما فعله . وهذا عدم فهم خطير . فستالين كان ماركسيا – لينينيا كبيرا ، لكنه ايضا ماركسي – لينيني اقترف بضعة اخطاء كبيرة عن غير وعي . ان علينا ان ننظر الى ستالين من زاوية تاريخية، وان نشرع بتحليل كامل ومطابق لنحدد متى اصاب ومتى اخطأ ولنستخلص من ذلك درسا مفيدا . ان الصحيح والمغلوط على حد سواء لدى ستالين هو ظاهرة من ظواهر الحركة الشيوعية الاممية ويحمل سيماء العصر . وان الحركة الشيوعية الاممية لم يمتد بها العمر اكثر من قرن ونيف ، ولم يمر على انتصار ثورة اوكتوبر سوى تسعة وثلاثين عاما . وما يزال هناك افتقار الى التجربة في العديد من قطاعات العمل الثوري . إن لنا انجازاتنا الكبيرة ، لكن لنا ايضا عيوبنا واخطاءنا . وكما ان تحقيق نجاح ما يؤدي الى نجاح آخر ، كذلك فإن التخلص من عيب أو خطأ يمكن ان يتبعه ظهور عيب آخر او خطأ آخر لا محيد عن التخلص منه بدوره . لكن النجاحات هي دوما اكثر عددا من الاخطاء ، وهناك دوما انجازات صحيحة أكثر من الاخطاء، والعيوب والاخطاء لا يمكن إلا ان تقوَّم في النهاية .

ان القيادة الصالحة لا تكمن في عدم اقتراف أي خطأ ، بل تكمن في النظر الى الاخطاء بعين الجد . ان الانسان الذي لم يخطيء قط لا وجود له . قال لينين : ((أن يعترف المرء علنا بخطئه ، وان يكتشف اسبابه ، وان يحلل الموقف الذي خطأه ، وان يدرس بانتباه وسائل تصحيح هذا الخطأ: تلكم هي سمة الحزب الجدي ، ذلكم هو ما يسمى ، بالنسبة اليه ، اداء التزاماته وتربية وتعليم الطبقة ، ومن ثم الجماهير)) .

ان الحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي ، الوفي لتعاليم لينين ، قد اتخذ موقفا جديا ازاء بعض اخطاء خطيرة اقترفها ستالين في قيادته لبناء الاشتراكية ، وإزاء نتائج

هذه الاخطاء التي ما تزال قائمة الى اليوم . وانما لأن هذه الاخطاء تنطوي على مثل هذه النتائج الخطيرة رأى الحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي ، مع اعترافه بجدارات ستالين الكبيرة ، ان من الضروري ان يعرض دونما تسامح ماهية الاخطار التي اقترفها هذا الاخير وان يدعو الحزب كله الى ان يرى فيها تحذيرا وتنبيها والى ان يصفي بحزم نتائجها المؤسفة .

اننا لمقتنعون ، نحن الشيوعيين الصينيين ، بأن الانتقادات القاسية التي طرحت في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ستسمح بالتأكيد لجميع العوامل الايجابية التي خنقتها تدابير سياسية مغلوطة بأن تتفتح من جديد على الحياة في كل مكان ، وبأن حزب وشعب الاتحاد السوفياتي سيوطدان وحدتهما بحزم اكبر ايضا في النضال لبناء مجتمع شيوعي كبير لا سابق له في تاريخ الانسانية ، وفي سبيل سلم دائم في العالم قاطبة.

ان القوى الرجعية العالمية تلبس هذه الوقائع مظهرا مضحكا . انها تسخر منا لأننا نصفي الاخطاء المقترفة في معسكرنا . لكن ما جدوى هذا الهزء ؟ إن ما لا ريب فيه هو ان هؤلاء الهازئين سيجدون انفسهم في مواجهة معسكر واسع للسلم والاشتراكية، اقوى وأمنع ايضا ، وعلى رأسه الاتحاد السوفياتي ، وأن افعالهم كأكلة بشر ستضعهم في أحرج المآزق .

---

(١) المصدر الذي اعتمده الصوت الشيوعي في نسخ هذا النص هو : كتاب " في التنظيم الثوري، تعريب وتقديم جورج طرابيشي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الاولى ، شباط (فبراير) ١٩٦٩ ، ص ٨٩ – ١٧٠ " حيث وردت في هذا الكتاب تحت عنوان " حول عبادة الشخصية " إلا اننا اوردناها هنا تحت عنوانها الأصلي . – ملاحظة الصوت الشيوعي .

(٢) نشر هذا المقال تحت عنوان ((حول التجربة التاريخية لدكتاتورية البروليتاريا)) في جريدة ((جيمنجباو)) في ٥ نيسان ١٩٥٦ ، بعد المناقشات التي دارت في اجتماع موسع للمكتب السياسي التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني . وهذا المقال ، علاوة على اهميته النظرية فيما يتعلق بموضوع عبادة الشخصية ، له اهميته التاريخية باعتباره وثيقة رسمية عن

موقف الحزب الشيوعي الصيني من المؤتمر العشرين عام ١٩٥٦ . ويكفي ان نرجع الى بعض النصوص الصينية المنشورة بعد تفاقم النزاع الصيني – السوفياتي ، كنص ((حول مسألة ستالين)) ، ونقارنها بهذا المقال حتى ندرك اهميته التاريخية . – ملاحظة جورج طرابيشي .

(٣) علامة التعجب هنا من وضع جورج طرابيشي (دلالة على عدم موافقته على نعت تروتسكي وزينوفييف بالخيانة والعمالة للرأسمالية) وليس لها وجود في النص الأصلي الذي ورد في جريدة ((جيمنجباو)) . – ملاحظة الصوت الشيوعي .

(٤) فيما بعد تراجع الحزب الشيوعي الصيني تحت قيادة ماو تسي تونغ عن هذا الموقف وتم احاطة ماو بهالة من القدسية ومورست له عبادة الفرد كستالين . – ملاحظة الصوت الشيوعي .

(٥) من المفيد ان ننوه بأن جميع ((ابطال)) هذه الاخطاء كانوا ستالينيين بهذا القدر او ذاك . ولهذا على وجه التحديد اصطدم بهم ماو تسي تونغ . ويمكن الرجوع الى تفصيل تلك الاخطاء في كتابنا المترجم عن ((تجارب اشتراكية)) في دراسة اسحق دويتشر عن ((الماوتسية)) . – ملاحظة جورج طرابيشي .